﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [البقرة: 88]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لـمَّا ذكَرَ اللّٰهُ أفعالَ بَني إسرائيلَ القَبيحَةَ، ناسَبَ أنْ يَنْتَقِلَ إلى ذكرِ بعضِ قبائحِ أقوالِهِم؛ فبعدَ أنْ عَرفوا أنَّ القرآنَ وَحْيٌ منَ اللّٰه، لَجَأوا إلى طَريقَتِهِم في التَّكْذيبِ؛ فكذَّبوا رَسولَ اللّٰهِ مُحَمَّدًا ﷺ، وافترَوا عليه اسْتِكْبارًا وعِنادًا وجُحودًا، فتَكونُ هذهِ الآيةُ تمثيلًا لِمَا ذكَرَتْه الآيةُ السَّابقَة مِنْ تَكذيبِ رُسُلِ اللّٰهِ، ومِنْهُم رسولُ اللّٰهِ محمّد ﷺ، فنُزِّلت هذه الآيةُ مِنَ السَّابقةِ مَنْزِلةَ المثالِ من القاعدةِ، وبمُحاوَلَتِهم قَتْلَه يَكونُ ذلك مِثالًا آخرَ على شَديدِ عَداوتِهِمْ، وقَبيحِ إصْرارِهِمْ.

❁ شَرْحُ المُفْرَدَاتِ:

1) ﴿غُلۡفُۢ﴾: أصلُ المادَّةِ: (غَلَفَ)، ويَدورُ مَعْناها عَلَى: غِشَاوَةٍ، وَغِشْيَانِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ، أو سَتْرِ الشّيْءِ بالشَّيْءِ الّذي يُجْعَل فيه، يُقَالُ: غِلافُ الكِتابِ، وقَلْبٌ أَغْلَفُ: كَأَنَّمَا أُغْشِيَ غِلافًا فَهُوَ لَا يَعِي شَيْئًا، و(غُلْف): جَمْعُ أَغْلَفَ، مثلَ حُمْرٍ وأَحْمَرَ، ويَصحُّ أن تكونَ كَلِمَةُ غُلْفٍ، بِمَعنى الأَقْلَفِ، وهُو الغُلامُ الّذي لم يَخْتَتِنْ، أي: بِمَعْنى الغِطاءِ، على مَعْنى: قُلوبُنا مُغَطَّاة فلا نَفْهَمُ مِنْ كَلامِكَ شَيْئًا[1]، والمَعْنى في الآيةِ: فلا نَفْقَهُ شَيْئًا ممّا تَقولُه، لِأَنّ كَلامَك لا يَدْخُل قُلوبَنا أَصْلًا، فالغُلْفُ يطلق على الوِعَاءِ الحَافِظِ لِلشَّيْءِ وَالسَّاتِرِ لَهُ مِنْ وُصُولِ مَا يُكْرَهُ لَهُ[2].

2) ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: اللَّعْن يَدُلُّ عَلَى إِبْعَادٍ وَطَرْدٍ على سبيل السُّخْطِ والذّمّ، واللَّعْنَةُ: الاسْمُ، وَالْجَمْعُ: لِعانٌ ولَعَناتٌ، يقال: لَعَنَ اللّٰهُ الشَّيْطَانَ؛ أي: أَبْعَدَهُ عَنِ الخَيْرِ وَالجَنَّةِ، واللَّعِينُ: صِفَةٌ غَالِبَةٌ تطلق على الشَّيْطَانِ، لأَنه طُرِدَ مِنَ السَّمَاءِ، أو لأَنَّهُ أُبْعِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ، ولَعَنْتُ الكَلبَ والذِّئبَ: طَرَدْتُهما، وتَلاعَنَ القَوْمُ وتَلَعّنوا والْتَعَنوا: بِمَعْنى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (غلف).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

لَعَنَ بَعْضُهُم بَعضًا، والتّلاعُنُ يَكونُ بَين اثْنَين فصاعِدًا، ومِنَ المَجازِ: "أبَيتَ اللّعْنَ"، وهيَ تَحيّةُ المُلوكِ في الجاهِليَّةِ، أيْ: لا فَعَلْتَ ما تَسْتَوْجِبُ به اللّعْنَ، واللّعْنُ مِنَ اللّهِ تَعالى؛ في الدُّنيا: انْقطاعٌ مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ وتَوْفيقِه، وفي الآخرةِ: عُقوبَةٌ، واللّعْنُ مِنَ الإنسان: سَبٌّ ودُعاءٌ عَلى غَيْرِه بالطّرْدِ، واللّعّانُ: كَثيرُ اللّعْنِ، واللُّعْنَةُ: الَّذي يَقَعَ عَليه اللّعْنُ كثيرًا، ومِنهُ قولُهم: لَا تَكُ لُعْنَةً عَلَى أَهل بَيْتِكَ؛ أَيْ لَا يُسَبَّنَّ أَهلُ بَيْتِكَ بِسَبَبِكَ، واللُّعَنَةُ: الذي يَلْعَن كَثيرًا[1].

3) ﴿قَلِيلًا﴾: أصلُ الكلمةِ: (قلل)، يقال: قَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً فَهُوَ قَليلٌ، والقِلَّة تدلّ على: نزارة الشيء، وَيُقَالُ: اسْتَقَلَّ القَوْمُ، إِذَا مَضَوْا لِمَسِيرِهِمْ، وَذَلِكَ مِنَ الإِقْلَالِ أَيْضًا، كَأَنَّهُمُ اسْتَخَفُّوا السَّيْرَ وَاسْتَقَلُّوهُ، والقِلّةُ تُقابِلُ الكَثْرَةَ، وتُسْتَعْمَلُ القِلّةُ والكَثْرَةُ في الأعْدادِ وفي المَعاني كَذلكَ، فيُقالُ: إيمانُه قَليلٌ، وإيمانُه كَثيرٌ[2].

❁ المَعْنَى الإجْمَاليُّ:

تُبيِّن الآيةُ ما قالَهُ اليَهودُ مِنْ أقوالِ التَّحايُلِ على قَبولِ الحقِّ والإذْعانِ لَه، وما أبانوا عنه من حججٍ واهيةٍ ومزاعمَ داحضةٍ؛ ليَتَهرَّبوا مِنَ الإيمانِ والاسْتِسْلام، فادَّعوا إحاطة قلوبهم بغلافٍ يَمْنَعُها مِنَ السَّماعِ والفَهم، والقلوبُ مُسْتَعْمَلَةٌ في مَعْنَى الأذْهَانِ، عَلَى طَرِيقَةِ كَلَامِ العَرَبِ في إِطْلَاقِ القَلْبِ عَلَى العَقْلِ[3]، وهُمْ في حَقيقَةِ حالِهِمْ مَلْعونونَ؛ فقليلًا ما يُؤمِنونَ، والآيَةُ تشرحُ حقيقةَ حالِهم الظَّاهِرةَ والباطِنَة؛ للحَذَرِ من مَسْلَكِهِم، والبُعدِ عَنْ مَنْهَجِهِم.

❁ الإيضَاحُ اللُّغَوِيُّ وَالبَلَاغِيُّ:

بَلاغَةُ الوَصْلِ في الآيَةِ:

بَيانُ اسْتِمْرارِ اليَهودِ عَلى مَنْهَجِ آبائِهِمْ في تَكْذيبِ الأَنْبِياءِ والرِّسالاتِ

الآيةُ معطوفةٌ على ما قبلها، استمرارًا لعَرضِ أفعالِ اليهودِ القبيحةِ، وقولهمُ الكَذِبَ مع الرُّسُل، فلم يكنْ كَذِبُهم مُقْتصِرًا على رُسُلِ بني إسرائيلَ، بل كَذَبوا على رسول الله محمَّدٍ ﷺ، وكَذَّبوه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الرّاغب، المفردات: (قلل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.

كذلك، فبَيّنتْ هذه الآيةُ قولَهم، فناسَبَ أنْ يكونَ العطفُ بالواوِ لِمُناسَبةِ المعنى واللَّفظِ، إذْ جاءَ العطفُ بجملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّةٍ.

نُكْتَةُ الالْتِفاتِ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيْبَةِ:

الإعْـراضُ عَـنِ الـمُـسيءِ، وإبْـعـادُهُ عَـنْ مَكارِمِ الخِطابِ

التَفَتَ السّيَاقُ من الخطابِ إلى الغَيْبَة، ونُكْتَةُ الانتقال أنَّ مَنْ أعْرَضَ عن الحقِّ وفعلَ الأفعالَ القبيحةَ والفَظيعةَ، يَسْتَحقُّ الإبعادَ، وإنْ كانَ حاضرًا لا يُلتفتُ إليه بالخطاب، بل يُعرَضُ عَنه، فيُشارُ إلى هذا الإبْعادِ والإعْراضِ بخطابِ الغَيْبةِ، "وَقَدْ حَسَّنَ الالْتِفَاتَ أَنَّهُ مُؤْذِنٌ بِانْتِقَالِ الْكَلَامِ إِلَى سُوءِ مُقَابَلَتِهِمْ لِلدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَهُوَ غَرَضٌ جَدِيدٌ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا تَحَدَّثَ عَنْهُمْ بِمَا هُوَ من شُؤونِهم مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ، وَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَيْهِمْ، وَلَمَّا أُرِيدَ الْحَدِيثُ عَنْهُمْ فِي إِعْرَاضِهِمْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، صَارَ الْخِطَابُ جَارِيًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وأُجْرِيَ عَلَى الْيَهُودِ ضَمِيرُ الْغَيْبَةِ"[1].

تَرَدُّدُ الكَلِمَةِ بَيْنَ الاسْتِعارَةِ والتَّشْبيهِ البَليغِ:

الامْـتِـنـاعُ عَـنِ السَّماعِ بِأَبْلَغِ عِبارَةٍ، ذَهابًا في الضَّلالةِ، وتَمَكُّنًا مِنَ الغَضَبِ

في قولِه تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ اسْتِعارةٌ على ظاهرِ كلامِ الزَّمخشريِّ، إذْ رأى أنَّ (غُلْف) في الآيَةِ مُسْتَعارٌ مِنَ الأغْلَف الّذي لم يُخْتَنْ[2]، والاستِعارَةُ هُنا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 223]، فـ(حَرْثٌ) مَجازٌ بالاستِعارَةِ، وأصلُه تشبيهُ النِّساء بالمَحارث، تَشْبيهًا لما يُلقَى في أرْحامِهنَّ - من النُّطَف التي منها النَّسلُ - بالبذور[3].

أو أنْ يَكونَ تشبيهًا بليغًا حُذِفَتْ أداتُه ووَجْهُ الشَّبَهِ، لزِيادَةِ التَّقْريبِ في مُشابَهَةِ قُلوبِهم للغُلْف، ووجهُ الشَّبهِ المَحذوفُ هو كَوْنُ كلٍّ منهما مَحْفوظًا في غِطاءٍ يَمْنَعُ من دُخولِ أيِّ شيءٍ إليه ممَّا يضُرُّهُ ويُؤذيه، قالوا ذلكَ على سَبيلِ التَّهَكُّم؛ لأنَّهُم كانوا يَعْتَقدونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/599.
(2) الزمخشري، الكشاف: 1/163، البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/93.
(3) الزمخشري، الكشاف: 1/266.

أنَّهم أعْقَلُ خَلْقِ اللّهِ وأهْداهُمْ[1]، وقَصَدوا بِكلامِهِمْ أنَّهم لَيسوا بِحاجةٍ إلى سَماعِ كلامِ رسولِ اللّهِ محمَّدٍ ﷺ، فهُمْ في غِنًى عنه بما عندَهم من التَّوْراةِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِكَلِمَةِ ﴿غُلْفٌ﴾:

استَعْمَلتِ الآيةُ مُفْرَدَةَ الغُلْفِ؛ لأنَّها تَتَضَمّنُ مَعْنَيَيْنِ؛ أحَدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ إشارِيّ:

الـجَـمْـعُ بَـيْنَ المَعْنى الظَّاهِرِ والإشاريّ بِبَديعِ الاِسْتِعْمال

المَعْنى الظّاهِرُ، وهُو أنَّ القلوبَ مَحْفوظَةٌ مِنْ أنْ يَصِلَ إليها كلامُك فلا نَفْهَمُ ولا نَعي ما تَقولُ. والمَعْنى الإشارِيُّ: أنّ كلام النّبي ﷺ ضُرٌّ وأذًى؛ لأنّ الغُلفَ هو الوعاءُ الّذي يَحْفَظ ما بِداخِله مِنَ الأذى والضُّرّ، وإذا كان ما يَسْمعونَه منَ القُرْآن ضُرًّا وأذًى؛ فهذا يَعْني تَكْذيبَ أنْ يَكونَ القُرآنُ كلامَ اللّهِ، وأنْ يكونَ رسولُ اللّهِ محمَّدٌ ﷺ نبيّا ورسولًا، وأنّ ما يقوله رسولُ اللّهِ ﷺ ليس إلّا ضَلَالاتٍ، ولو كان حَقًّا لوَعَتْه قلوبُهُم، وجَمْعُ هذه المفردة لِهذَيْنِ المَعْنَيَيْنِ، يُناسِبُ طَبيعَةَ كَلامِ اليهودِ مِنْ رَمْيِ الآخَرينَ بِألْفاظٍ إشارِيَّةٍ، فناسَبَ الكلامُ الكلامَ.

اخْتِيارُ الأَلْفاظِ المُناسِبَةِ للمَعاني:

لَـفْـظُ الـلَّـعْـنِ مُناسِبٌ لِعَظيمِ جُـرْمِ الـيَـهـودِ في حَـقِّ الـرُّسُـلِ جَميعًا

جاء التعبيرُ باللَّعْنِ للدّلالة على أنَّهُمُ ارْتَكبوا أشَدَّ الذُّنوبِ، فما قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ إلّا اسْتِكبارًا مِنْهم أنْ يَتّبعوا رَسول الله ﷺ، وهذا الاسْتِكبارُ هُوَ امْتِدادٌ لِمَا ذَكَر في الآية السابقة من اسْتِكبارِهِم على رُسُلِ الله؛ لأنَّ اللَّعْنَ لا يَكونُ إلّا عَلى أشَدِّ القَبائِحِ، وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الذَّنْبِ بِأَعْظَمَ مِنْهُ[2]، وأفادَتِ الباءُ السَّبَبِيّةَ[3]، فلَعَنَهم اللّه بِسببِ كُفْرِهِم وإصْرارِهِمْ عَلَيْه، فجاءَتِ العُقوبَةُ جَزاءً لعَمَلِهِم.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: 3/169.
(2) تراث أبي الحسن الحرالي: 1/239، القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/25.
(3) البروسوي، روح البيان: 1/17.

دلالة حَرْفِ الإضْرابِ الإبْطالِيِّ:

وردَتْ أداةُ (بَل) لإبْطالِ قولِ اليهودِ: (قُلوبُنا غُلْفٌ)[1]، والّذي دَلَّ على هذا الإبطالِ ذمُّ قولِهم ولعْنُهم عَليه، وإنَّما يُذَمُّ الكاذبُ المبْطِلُ، فدلَّ الإضْرابُ على ثَلاثَةِ معانٍ:

الأوّل: الإضْرابُ عن القَولِ الأولِ وإبطالُه، بمَعْنى أنَّها أبْطلَتْ مَعْنى قَوْلِهم: (قُلوبُنا غُلْفٌ)، فقُلوبُهُم لَيْسَتْ بِغُلْفٍ؛ لأنَّها خُلِقَتْ مَفْطورَةً على قَبولِ الحَقّ، مُدْرِكةً للصّوابِ.

الثّاني: تَكذيبُ ما قَبْلَها وصِدقُ ما بَعْدَها، فقد كَذّبَهُم اللّه في قَوْلِهم، ودَلَّ على أنَّ لَعْنَهم ثابتٌ صادِقٌ، أيْ لَيْس الأمرُ كما قالوا، بل قُلوبُهم مُسْتَعِدَّةٌ لِقَبول الحَقِّ، وسَبَبُ خذْلانِهم ورَفضِهِمُ الحقَّ هُوَ كُفْرُهُم.

الثّالث: الانتقال إلى ذِكرِ عُقوبَتِهمْ وبَيانُ سَبَبِها، فبَدلًا مِنْ أنْ يَقول: بَل قُلوبُهم ليْسَتْ بِغُلْفٍ، انْتقلَ إلى ذِكرِ لَعْنِهم، وأنَّه بِسَبَبِ كُفْرِهِم وتَماديهِم فيه؛ لِأنّ مَفْهومَ الإبطالِ يقْتَضي إثْبَاتَ نَقيضِهِ، فأوْجَزَ في الكَلامِ[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفاءِ دُونَ الواوِ:

تَفْريعُ عَدَمِ الإيمانِ عَنِ اللَّعْنِ، وأنَّ الكُفْرَ سَبَبُ كُلِّ مُصيبَةٍ

جاء التَّعْبيرُ بالفاءِ العاطِفةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَلِيلًا﴾، دونَ التَّعبيرِ بالواوِ؛ ليترَتَّبَ على لَعْنِهم وطَرْدِهم مِنْ رَحْمَةِ اللّه عَدَمُ الإيمانِ، فالفاءُ تَفْريعٌ على اللَّعْنِ، أي: بِسَبَبِ اللَّعنِ اسْتَحقُّوا ألّا يُؤمِنوا إلّا قليلًا.

❁ الفُرُوقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغُلْف والأَكِنَّة:

قال اللّه هنا على لِسانِ بَني إسْرائيلَ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفُۢ﴾، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5]، والفرق بينهما: أنّ الغلاف هو الغِطاءُ الذي يمنعُ الخُلوصَ إلى الشَّيْءِ ويَحْفَظُه منَ الأذى، والكِنُّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 1/484.

(2) مجمع البحوث الأزهري، التفسير الوسيط: 1/137.

هو ما يُحْفَظ فيه الشَّيْءُ، فمَدْلولُ الأكِنَّةِ ظَرْفٌ يَقَعُ فيه مَظْروفٌ، ولهذا وَرَدَتِ الكَلِمَةُ في سِياقِ الظَّرْفِيَّةِ، فاسْتُعْمِلَت مَعَها (في) الظرفيَّةِ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ [فصّلت: 5]، فناسَبَ عِندَ سِياقِ منعِ دُخولِ الكَلامِ إلى القَلبِ المُقتضي أنْ لا يُفْهَم ولا يُفْقَه أنْ يُسْتعملَ (غُلْف)، عَلى مَعنى مَنْعِ الخُلوصِ إلَيْهِ، وعِندَ سِياقِ الظَّرْفِيّةِ أنْ تُسْتَعملَ الأكِنَّةُ؛ ولِهذا وَرَدَ في سِيَاق الأكِنّة: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصّلت: 5].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأول، من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة [إشراف مجمع القرآن الكريم،
قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 1 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-52-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 1 : من سورة الفاتحة إلى الآية 97 من سورة البقرة.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-52-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9609262 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»